مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (24) العدد (17)2002
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Human Sciences Series Vol (24) No (17) 2002

النظم من سيبويه إلى الجرجاني

الدكتور سامي عوض *
حسن شحود**

(قبل للنشر في 2002/1/28)

□ الملخّص □

اقترن النظم في أذهان الدارسين بعبد القاهر الجرجاني لأنه استطاع بفكره الخلاق أن يستفيد من جهود السابقين عليه حيث نجد قبله تراثا فكريا ولغويا كبيرا تمكن أن يشكل من نظرية تفسر من خلالها العلاقات اللغوية في السياق وهي نظرية النظم.

ويمكن للباحث أن يرى في الجهود التي سبقت عبد القاهر اتجاهين مهمين كان لهما أثر كبير في تشكيل هذه النظرية عند عبد القاهر هما:

1- الاتجاه النحوي: وقد قدم النحاة جهودا عظيمة في هذا المجال وتركوا آثارا فاعلة في إبراز جوهر هذه النظرية بدءا بسيبويه ومرورا بمن جاء بعده حتى القرن الرابع الهجري حيث ارتدت الدراسة اللغوية ثوبا زاهيا بهيا يتمثل بما وجدناه عند الفارس وتلميذه ابن جني وعبد القاهر نفسه كان من كبار النحاة. وقد ساهم في إرساء القواعد اللغوية ليصل إلى تأسيس هذه النظرية كنظرية للفكر اللغوي العربي.

2- الاتجاه الذي يبحث في وجوه إعجاز القرآن: والإعجاز قضية كبرى اشتغل عليها النقاد العرب كالماني النحوي والخطابي والقاضي عبد الجبار والباقلاني وغيرهم. وما يلاحظ هنا أيضا أن أكثر هؤلاء كان يعتمد في جانب من جوانب الإعجاز على الفكر النحوي (معاني النحو) وعبد القاهر كان واحدا من هؤلاء حيث كانت له (رسالة في إعجاز القرآن) ضمن ثلاث رسائل حتى وضع كتابه (دلائل الإعجاز) ليقصر فيه الإعجاز على النظم والنظم حقيقة هو جوهر التركيب اللغوي وهو يعرفه بقوله: (ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو).

وما سبق يعني أن عبد القاهر سيبني نظريته في النظم على أساس من الفكر النحوي فقد وجد بناء لغويا شامخا وتراثا فكريا عظيما فما كان منه إلا أن قام بلم شتات الأفكار والملاحظات المتناثرة في تراث سابقيه ليشكل من ذلك نظرية النظم فأضاف إلى ملامح عبقريته الخلاقة وألوان ذوقه اللطيف وحسه المرهف فتخرج النظرية في النهاية نظرية الفكر اللغوي العربي.

*أستاذ في قسم اللغة العربية – كلية الآداب– جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
**طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية – كلية الآداب– جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (24) العدد (17)2002
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Human Sciences Series Vol (24) No (17) 2002

Versifying between thinking and theorizing from Sibawayh to Gergani

Dr.Sami Awad *
Hassan Shahhoud**

(Accepted 28/1/2002)

□ ABSTRACT □

Verse composition was coupled into scholars mind with Abed Al-Kaher Al-Gergani for he was able to get benefit from efforts of his antecedents through the theme of creator where we could find out a great linguistic and intellectual heritage of which he had an ability to form a theory to interpret linguistic relationships in this context, that is theory of verse composition.

A researcher can discover in efforts that come prior to Abed Al-Kaher, two important directions having a huge impact on establishing Abed AlKaher's theory, they are:

1. Syntax direction: Grammarians made great efforts in this walk leaving reactive traces in showing the essence of this theory from Sibawayh throughout those who came later until the Hijri 4^{t}" Century where linguistic study had worn a bright colorful garment represented by what we found with Al-Farisee and his scholar Ibn-Jinni, and Abed AlKaher himself was one of the greatest grammarians where he participated in establishing linguistic grammars so as to reach foundation of this theory as a theory of Arabic linguistic thought.
2. Direction seeking for aspects of Koran miracle: Miracle is a great question on which Arab criticizers have been working as Al-Rammani the grammarian. Al-Khitabi, Abed Al-Gabar the judge, and Al-Baklani and others.

What noteworthy here is that most of them had relied on one of sides of miracle on grammatical thought (grammar semantics) and Abed Al-Kaher was one of them, where he had a "message in Koran miracle" within three messages, until he put his book "Miracle Evidences" in which he briefed miracle into verse composition which is, in fact, the essence of linguistic structure as he defined it "verse composition is that to put your speech in a position required by grammar".

What mentioned above means that Abed Al-Kaher would build his theory of verse composition on basis of grammarian thought where he found out a lofty linguistic structure and a great intellectual heritage, so he collected the scattered ideas and dispersed remarks of his antecedent's heritage to form theory of verse composition out of that where he added the features of his creative genius, colors of his gentle taste and his sensitive feeling in order to emerge of the theory of Arab linguistic thought at the end.

***prof at department of Arabic language –faculty of arts-tishreen university-lattakia- syria.**
****phD student department of Arabic language –faculty of arts-tishreen university-lattakia- syria.**

برزت عند النحاة العرب إشارات بلاغية نجدها متناثرة في ثنايا مؤلفاتهم ، كان لها على ما يشير الباحثون – أثر كبير في تطور الفكر البلاغي الذي رأيناه ناضجاً عند عبد القاهر في نظرية النظم ، وعند أصحاب علم المعاني، فسيبويه على ما يظهر في كتابه كان يحاول دائماً أن يقيم الرّوابط ويقوّي الوشائج بين الأسلوب المستخدم والمعنى المراد ، ويحاول تفسير الكلام ويقسمه من حيث الإحالة والاستقامة، والحسن والقبح [1]، و يلاحظ دائماً ما يصيبه من حذف وما فيه من فصل ووصل ،وتقديم وتأخير، وغير ذلك من ظواهر لغوية طارئة على الكلام، ويمكن الباحث أن يرى في صنيعه مقدّمة للبلاغيّين بوّأته مكان الرائد لمن جاء بعده من لغويين، ومن أمثلة تفريقه بين الأساليب وربطها بالمعاني حديثه في تقديم الاسم أو الفعل في سياق الهمزة ، يقول : (والدليل على أنّ قولك : أزيد عندك أم عمروٌ بمنزلة قولك : أيّهما عندك أنّك لو قلت : أزيد عندك أم بشرٌ ، فقال المسؤول : لا ، كان محالاً كما أنّه إذا قال : أيهما عندك ، فقال : لا ، فقد أحال .

وأعلم أنّك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن ، لأنّك لا تسأله عن اللّقى ، وإنّما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيّهما هو فبدأت بالاسم لأنّك تقصد قصد أن يبيّن لك أيّ الاسمين في هذا الحال ، و جعلت الاسم الآخر عديلاً للأول فصار الذي لا تسأل عنه بينهما) [2] ويظهر هنا أنّه يجعل الأسلوب تابعاً للمعنى الذي يتنوع بتنوع الأساليب ، ولا يختلف هذا المستوى في معالجة الكلام عمّا رأيناه من مفهوم النظم فيما بعد ، فهو يفرق بين استعمال لغويّ وآخر ، وأسلوب وأسلوب دون أن يسمى ذلك بالنظم ويشير في موضع أخر إلى ما عرفناه عند اللغويين التالين له من أنّ كل تغير في المبنى يؤدي إلى تغير في المعنى ، يقول : ((وهذا أكثر من أن أصفه لك في كلام العرب ، فقد يكون الاسمان مشتقين من شي والمعنى فيها واحد وبناؤهما مختلف فيكون أحد البناءين مختصاً به شيء دون شيء ليفرق بينهما)) [3] وقد ترك هذا المبدأ أثراً واضحاً عند من تحدث في النظم في مرحلة تالية. وهو يشير في حديثه إلى مفهوم الخبر والإنشاء [4]، واستخدام الخبر في معنى الإنشاء [5] .

ويعرف **المبرد** الخبر بأنّه ((ما جاز على قائله التصديق و التكذيب)) [6]، وهذا التعريف وجدناه سائداً فيما ورد عند البلاغيين ويذكر الحمل على المعنى [7]، والاستعارة [8]، والالتفات [9]، والتشبيه [10]، والكناية [11]، ويناقش مفهوم الفصاحة [12]، ويظهر عنده مصطلح (**حسن النظم**) في جوابه لأحمد بن الواثق حيث يقول : ((الجواب فيما سألت : أنّ حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم ، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول)) [13] ونظن أنّه يقصد بحسن النظم ما يذكره بعد ذلك ، أي مقاربة الكلمة لغيرها في الكلام ومناسبتها له ، وسرعة حضور المعنى بوجود العبارة دون زيادة في الكلام .

ويؤلف **الرماني** (ت 386 هـ) رسالة في إعجاز القرآن يتناول فيها جملة من المسائل البلاغية ، فهو يرى أنّ البلاغة إنّما هي ((إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ)) [9]، ويفرد أبواباً للإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، وغير ذلك من أنواع البلاغة [14]، ويظهر عنده لفتة طيبة في مجال النظم ، حيث يقول : ((ودلالة الأسماء والصفات متناهية ، فأمّا دلالة التأليف فليس لها نهاية)) [15] ، ويفهم من هذا الحديث عنده أنّه يدرك وجود آفاق غير متناهية يمكن أن يفرزها السياق من حيث الدلالة .

وإذا ما وصلناإلى **ابن جنّي** فإنّنا نجد عنده جهوداً عظيمةً في هذا المجال وأحاديثه التي تتعّلق باللفظ والمعنى تعطيه مرتبة كبيرة في تاريخ الدرس اللغوي والبلاغي ، حتى قيل : إنه كسا هذه المسألة ثوباً جديداً زاهياً خالف فيه السابقين جميعاً [16] ؛ فهو يفرد باباً (للرد على من ادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني)، يقول فيه: " وذلك أنّ العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها ، بالشعر تارةً ، وبالخطب أخرى وبالأسجاع التي تلتزمها ، وتتكلف استمرارها ، فإنّ المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدراً في نفوسها " [17] ، وهذا – في ظننا – طرح جديد في هذه المسألة ، فالعناية بالألفاظ إنّما هي من أجل المعاني ، وهي " خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها، وتشريف منها ... " [18]، ويعلّق على قول الشاعر :

فلما قضينا من مّنى كلّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

بقوله : ((و ذلك أنّ في قوله (أطراف الأحاديث) وحياً حفياً ، ورمزاً حلواً ، ألا ترى أنّه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيّمون، من التعريض، والتلويح، والإيماء دون التصريح، وذلك أحلى وأدمث ، وأغزل وأنسب من أن يكون مشافهة وكشفاً، ومصارحةً وجهراً، وإذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم ، وأشد تقدماً في نفوسهم، من لفظهما وإن عذب موقعه ، وأنق له مستمعه)) [19]، ويستدلّ على تقدم المعنى على اللفظ عندهم بتقديمهم لحرف المعنى ، ويرى أنّ ذلك ((أمارة لتمكنه عندهم)) [20]، ثم يقول : ((فقد رأيت – بما أوردناه – غلبة المعنى للفظ ، وكون اللفظ خادماً له ، مشيداً به ، وأنّه إنّما جيء به له ، ومن أجله)) [21]، ويعقد باباً (في قوة اللفظ لقوة المعنى) [22]، وهو يعتمد في تفسير مسائل التقديم والتأخير على القرائن، ويذكرها باستمرار [23].

ويعرض **ابن جنّي** للمجاز ، فيبين أنّه ((يعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة ، هي : الاتساع ، والتوكيد، والتشبيه [24] ، ويتناول باستمرار الأساليب النحوية ويفسرها ، ومن ذلك خروج الاستفهام إلى معنى الخبر كالتقرير، والإثبات، والنفي [25] ويرى أنّ الدعاء إنّما يأتي بصورة الماضي ((تحقيقا له وتفاؤلاً بوقوعه أنّ هذا ثابت بإذن الله ، وواقع غير ذي شكّ)) [26]، ويظهر في مؤلفاته جهود كبيرة في هذا المجال ، لا نستطيع في هذه العجالة استقصاءها .

ويتبين لنا مما سبق أنّ النحاة كان لهم الفضل الأكبر في ترسيخ أركان البلاغة ، ولو حاولنا متابعتها لاحتجنا إلى بحث مستقل ومما يجب أنّ نؤكد عليه هنا أنّ هذه الجهود كانت معيناً ثّراً استطاع عبد القاهر أن ينهل منه ليبني نظريته اللغوية في تفسير التراكيب (نظرية النظم) ، فما حدود هذه النظرية ؟ .

إذا عدنا إلى الدراسات اللّغوية قبل عبد القاهر فإنّنا نجد تراثاً ضخماً حاول فيه اللغويون الوقوف على أسرار اللغة، ففرقوا بين الأساليب المتنوعة، كما رأينا فيما سبق من هذا البحث ، ولعلّ أقدم إشارة إلى النظم ما نجده عند **ابن المقفع** (ت 142هـ) حيث يتحدث عن صوغ الكلام فيقول : ((فليعلم الواصفون المخبرون أنّ أحدهم – وإن أحسن وأبلغ – ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً ، فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليل ، ووضع كل فصّ موضعه ، وجمع إلى كلّ لون شبهه بما يزيده بذلك حسناً فسمي بذلك صائغاً رقيقاً)) [27]، في هذا النص يشبه نظم الكلام بنظم الجواهر، ويظهر اعتماده في مفهوم النظم على الترتيب والمشاكلة ، ويوضح **ابن قتيبة** (ت 276 هـ) هذا المفهوم ، فيرى أنّ ((النظم بمعنى سبك الألفاظ ، وضم بعضها إلى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني ، فيجريان معاً في سلاسة وعذوبة كالجدول، لا تعثر، ولا كلفة ، ولا حوش في اللفظ، ولا زيادة أو فضول)) [28]، وهنا يظهر مصطلح النظم بشكل أوضح فهو ضمّ لفظة إلى أخرى بطريقة مخصوصة بما يتناسب مع المعاني، أي جعل التركيب على قدر المعنى مناسباً له ، غير فضفاض عليه مع سلاسة وعذوبة ، ويتعرض للأساليب المتعلقة بالنظم فيرى أنّ العرب لها ((المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض والإفصاح ، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد خطاب الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص)) [29] ، ويظهر هنا أنّه يدرك العلاقة بين مسائل البلاغة ومسائل النحو ، إذ يجعلها جميعاً طرق الكلام وأساليبه ، وهذه خطوة متقدمة في هذا المجال .

ويستطيع الباحث أن يرى اهتمام العلماء بإعجاز القرآن عاملاً مهماً من عوامل تطور فكرة النظم ، **فالخطابي** (ت 388 هـ) الذي ألّف رسالة في إعجاز القرآن يرى أنّ الكلام يقوم بثلاثة أشياء : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، ويتابع في ذلك قائلاً : "وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور فيه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها و صفاتها ... واعلم أنّ القرآن إنما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف،مضمناً أصح المعاني ...."[30]، ويبين بعد ذلك أنّ نظم القرآن قد اجتمع فيه أمران، هما : الفخامة ، والعذوبة ، الأمر الذي خص به وحده [31]، ويتابع حديثه فيرى أنّ عمود البلاغة إنّما " هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إمّا تبدل المعنى

الذي يكون منه فساد الكلام ، وإمّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أنّ في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر والبخل والشحّ ، وكالنعت والصفة ..." [32]، ففي النصين السابقين تراه يعرض لمشكلة اللفظ والمعنى ، ويبين أنّ من صفات النظم الرفيع اجتماع صفتي الفخامة والجزالة، وهاتان الصفتان قد اجتمعتا في نظم القرآن ، و يجعل الفضيلة للمعاني ، و هي تظهر من خلال علاقة الألفاظ بعضها ببعض [33]، ويركز على حسن النظم ، والربط الذي يظهر عندما تأخذ اللفظة موضعها في الكلام ، ويفرق بين الألفاظ المتقاربة المعاني على ما مر بنا ، حتى يكون لكلّ لفظ منها موضع لا يستقيم إلا به، فإذا استخدم لفظ منها مكان لفظ فلا بدّ أن يحدث تغيير في المعنى ، قد يؤدي إلى فساد في النظم ، ويذكر في حديثه الوسائل التي يحتاج إليها في النظم، يقول : " أمّا رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذف فيها أكثر ، لأنّها لجام الألفاظ وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض،فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان " [34]، فالمعاني التي تحملها الألفاظ ما هي إلا نتاج معاناة شديدة ، لأنّها تحتاج إلى تأمّل ، وتفكّر وثقافة وذكاء ، فهي الصورة النفسية للصياغة اللفظية [35]. وهذه النظرة المتقدمة إلى النظم سنجد آثارها واضحة عند من جاء بعده .

ويرى **الباقلاني** (ت 406 هـ) أنّ القرآن " بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه "[36]. ونظمه مفارق لجميع نظوم كلامهم وأوزانه [37]. فهو على طوله وامتداده " قد جاء على أعلى درجات الفصاحة والتناسب في البلاغة والتشابه في البلاغة " [38]. وقد خلا من الوحشيّ المستكره، والغريب المستنكر، وليس فيه صنعة أو تكلف ومع ذلك فمطلبه عسير وممتنع، ولا يقع في الوهم أن يستطيع شخص مجاراته [39]. وهو يرى أنّ ترتيب الألفاظ في العبارة يتبع ترتيب معانيها في النفس [40].

أمّا إذا وصلنا إلى **القاضي عبد الجبار** (ت 415 هـ) فقد وصلنا إلى مستوى متقدم في النظر إلى النظم فهو يرى أنّ إعجاز القرآن لا يكون بالنظم وحده ، إذ لا بد أن يضاف إلى ذلك اختصاصه برتبة الفصاحة [41]. ويبيّن أنّ السبق إلى الشيء والمجيء به على غير مثال " يعرفه الناس لا يعد معجزة ، ولا يدخل في باب الإعجاز "[42]. ويوضح مقصوده من النظم بقوله :"أعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنّما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بدّ مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ..."[43]، وهو هنا يشير إلى جملة من المسائل التي رأيناها فيما بعد عند عبد القاهر، فالفصاحة لا تظهر في الكلمة المفردة ، وإنّما تظهر في الكلام عندما يضم بعضه إلى بعض بالاعتماد على أبواب النحو ، ويظهر أنّ فكرة النظم قد تطورت عنده كثيراً ، وسيكون هذا الإدراك عند عبد الجبار لمفهوم النظم مقدمة تبشر بظهور أعلام نظرية ، على ما سنرى عند عبد القاهر .

نظرية النظم عند عبد القاهر :

أقام عبد القاهر رؤيته لإعجاز القرآن على أساس النظم ، وهو يبيّن معناه بقوله : " واعلم أن ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ... " [44]، فهو يجعل من معاني النحو أساساً يبنى عليه النظم ، " ولست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً ،وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنىً من معاني النحو وقد أصيب به موضعه ، ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه ، واستعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه ، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه " [45] ويفهم من هذا النص وغيره من النصوص عند عبد القاهر أنّه يرى النظم في معاني النحو ، أو كما يعبر د. عبد القادر حسين أنّه يريد إثبات أنّ النظم في جوهره هو النحو في أحكامه ، لا من حيث الصحة والفساد فحسب ، بل من حيث المزيّة و الفضل [46].

والنظم عنده إنّما هو في المعاني ، وليس في الألفاظ ، فالألفاظ " لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة "، " والألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلّق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنّك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر... "[47] ، وهو يفرق بين نظم الحروف ونظم الكلم ، وليس لنظم الحروف مزية أو فضل عنده ، بل تكون المزية في نظم الكلم وذلك أنّ نظم الحروف إنّما يكون بالمواضعة ، أمّا نظم الكلم فيقتفي فيه الناظم ترتيب معانيها في النفس ، وبذلك يكون نظم الكلم مثل " النسج والتأليف، والصياغة، والبناء ، والوشي، والتحبير، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح " [48]؛ فليس المقصود بالنظم توالي الألفاظ في النطق ، بل تناسق دلالتها وتلاقي معانيها " على الوجه الذي اقتضاه العقل " [49]؛ فالألفاظ تابعة للمعاني لأنها أوعية لها فالمعنى الذي يكون أولاً في النفس وجب للّفظ الدّالّ عليه أن يكون أولاً في النطق [50]،وتراه يوضح معنى النظم في مواضع كثيرة من كتابه ، ومن ذلك قوله : " واعلم أنّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشكّ أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه لسبب من تلك ، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس ..." [51]، ويوضح المقصود بالتعليق والبناء بأن يعمد إلى اسم مثلاً فيجعل فاعلاً أو مفعولاً ، أو يعمد إلى اسمين فيجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو غير ذلك من أبواب النحو [52]، وهذا كّله يؤيد تبعية اللفظ للمعنى في النظم حيث تترتب الكلم في النطق بسبب ترتّب معانيها في النفس [53].

وفصاحة الكلمة عند عبد القاهر إنّما تأتيها من " مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها ، وضل مؤانستها لأخواتها " [54]، فالنظم قانون غير محصور ، يعطي اللطائف باستمرار من خلال ما يفرزه السياق، ويفيده الاستخدام، ويبرز للنحو عنده مستويان :

المستوى الأول : هو الذي رأيناه في أثناء دراستنا النحوية له ، وهو مستوى الخطأ والصواب، الذي لا ينفصل عن المستوى الثاني .

المستوى الثاني : هو مستوى الإبداع الذي يتجلى في النظم بآفاق رحبة غير محدودة ، يظهر من خلالها التمايز بين إبداعٍ وآخر، فلم يعد النحو عنده علم الإعراب والبناء، بل أصبح دالاً على العلاقات النحويّة بين مفردة ومفردة ، وبين جملة وجملة والمعنى الذي يفرزه السياق من خلال استخدام أو آخر .

ويعقد فصلاً (في النظم يتحد في الوضع ، ويدق فيه الصنع) ، نكاد نجد فيه أنّه يحاول أن ينظر فيه إلى النص على أنّه وحدة متكاملة ، فهو يقول : " واعلم أنّ مما هو أصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً ، و أن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك ، نعم ، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأوّلين ، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حدّ يحصره، وقانون يحيط به، فإنّه يجيء على وجوه شتّى وأنحاء مختلفة [55]؛ فهذا النص يظهر فيه بعد جديد في النظر إلى النص ، فهو في ظننا يحاول أن ينظر إلى النص نظرة كلية ولكنه لم يطبق ذلك على نص من النصوص ، حتى نتأكد من هذا الاتجاه .

وهو يعرف الأسلوب بقوله : " الأسلوب : الضرب من النظم والطريقة فيه " [56] ، ويبدو أنّ الأسلوب عنده كالنظم يأخذ " طبيعة ذهنية تصوّريّة ، ومن ثم يصبح اكتساب هذا التصور والتحرك فيه شيئاً قابلاً للتحقق " [57]، فعبد القاهر يحيل هذا التصور إلى صورة نفسية، " وهي صورة مزدوجة ، بمعنى أنّ لها وجوداً داخلياً وخارجياً على صعيد واحد ، ولا يتحقق الوجود الخارجي إلا بالنظر في التراكيب وما بين مفرداتها من علاقات ، وبالنظر فيما ينتج نصياً من دلالة " [58]، وهو دائماً ينظر إلى المعاني وما تؤديه من وظائف نحوية ترسم الصور المعنوية ، أو ما يسميه عبد القاهر بالمعاني الثواني ، وهذه الوظائف تؤثّر في تطابق الدال والمدلول ، فيؤدي ذلك إلى وجود انزياح يسمح بظهور آفاق واسعة من خارج التركيب بالاعتماد على البنى البلاغية ومن داخله بالاعتماد على ما يطرأ عليه من تقديم وتأخير وغير ذلك من ظواهر [59].

وهكذا استطاع عبد القاهر أن يستثمر جهود سابقيه ليجعل من النظم نظرية محورية ينظر إلى السياق من خلالها ، وهو لم يخلق هذه النظرية من عدم ، على ما رأينا ، بل كان العلماء السابقون قد أرسوا أركانها ، ولكنهم لم ينظروا إليها كما نظر عبد القاهر إذ جعلها نظرية تفسّر من خلالها التراكيب حتى كان هو من جعلها نظرية وهو نفسه يشير إلى ذلك [60]. وقد استطاع أن يدرس أنواع البلاغة من خلال ربطها بالنظم حتى أصبحت جزءاً منه ، وقد لاحظنا سابقاً أن المسائل البلاغية عند النحاة كانت عبارة عن ملاحظات عابرة لا تشكل منهجاً متكاملاً على الطريقة التي نجدها عند عبد القاهر ، حيث استطاع أن يهضم هذا التراث الفكري العظيم ليجعل من نظرية النظم نظريّة محوريّة للدرس البلاغي .

ويظهر عند الباحثين المعاصرين اتّجاه متميّز في قراءة النّظم عند عبد القاهر ، يعتمد أصحاب هذا الاتّجاه على الغوص في فكر عبد القاهر في محاولة لإستكشاف عوالمه الدّاخلية،فها هوذا د.مصطفى ناصف يرى في استخدامه للنظّم أبعاداً روحيَّةً ، حيث يتحوَّل إلى مصطلح أرفع من القواعد والقيود ، ليصير عنوان حريَّة المبدع ، وهذا ما يحمله تعبيره حيث يقول : ((إنَّ نبرة كلمة النظم تحمل التعجُّب والتحُّرر من التبعَّية الغليظة والاتّصال الآلي . إن كلمة النّظم بعبارةٍ أخرى مجمع الإحساس بالوصال والانفصال كليهما . كلُّ ملاحظات الكتاب تدور حول هذا المعنى الأساسيّ . وكلُّ الصِّيغ الحيَّة التي استوقفت عبد القاهر يمكن أن توضع في هذا الإطار . لقد وقف عبد القاهر أيضاً عند عبارات قال إنَّها تصبُّ صبّاً واحداً أو تفرغ إفراغاً واحداً . مامعنى هذا ؟ العبارة تبدو كالكلمة الواحدة . العبارة تبدو وقد محت نفسها أو محت تواليها وانتظامها وزمانها . العبارة استحالت إلى ومضةٍ خاطفةٍ . هذا هو مفهوم النّظم في الكتاب كلِّه))(61) .

وهويرى أنَّ النظم عند عبد القاهر أشواقٌ حارَّة يظهر من خلالها إشراقاً ولمعاناً وإضاءةً، حيث تضيء كلمةٌ وسط جمعٍ من الكلمات ، إنَّها روحٌ تحمل سرَّ الصَّمت في انتهاك المألوف ، ليستحيل شاعريَّة فيَّاضةً لم تكن كذلك لولا النَّظم ، وماهذا النَّظم ؟ إنَّه ضربٌ من التصوُّف (62) .

يقف الباحث عند إعجاب عبد القاهر ببيت الخنساء :

إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

فيرى في تعليق عبد القاهر على هذا البيت أنَّه عاد ((يبكي ويستبكي ، ويقف ويستوقف))(63)

ويصل في النهاية إلى أنَّ النّظم هو الكلام الحقيقيّ الّذي لايقال ، حيث يستشف من أسلوب عبد القاهر اقتراباً من عبارة التوحيد اقتراباً يحمل بعداً روحيّاً في تصوُّر اللُّغة ونشاطها (64) .

ويتبيَّن د.نصر حامد أبو زيد في قول عبد القاهر بالفروق بين أساليب الكلام المختلفة شيئاً مختلفاً عن قوانين النّحو المعياريّ لأنّها في هذا الأخير متساويةٌ ، في حين ينظر إليها عبد القاهر على أنّها فروقٌ في الدّلالة ، يتحوَّل معها الكلام من مستوى إلى آخر ، وهذا سرُّ الفرق بين كلام وكلام ، حيث تظهرعند تفرقته فيها الخصائص الفرديَّ الّتي تميِّز أديباً من آخر(65) . ويقف عند تفرقته بين دور المتكلم في النَّظم ودور اللُّغة ، فيثني على عمله هذا ، من جهة أنّه أمرٌ مهمٌّ ، إلاّ أنّه يأخذ عليه أنَّ ذلك لم يكن نابعاً في فكره ((من توجُّه نقديٍّ يدرك دور المبدع في تشكيل النصّ بالمعنى النَّقديّ الحديث)) (66) .

ويتأمّل الباحث موقف عبد القاهر من علاقة الشاعر بالألفاظ المفردة ، حيث يرى عبد القاهر أن لا علاقة للشاعر بالألفاظ المفردة ، لأنّه لم يبدعها ، وإنَّما يقوم بإعادة تشكيلها وفق تصوُّرٍ خاصّ ، فيرى الباحث هنا أنّ ما يقوله عبد القاهر في هذا الشّأن لايبتعد ((عن التصوُّر المعاصر لعلاقة الشاعر باللّغة)) ، ففهمها عند الطرفين على أنّها نوعٌ من المعاناة والمكابدة (67)

ونجد من المفيد أن نختم هذا البحث بجانبٍ تطبيقيٍّ نجعله في قسمين ، نتناول في القسم الأوّل منه ، نموذجاً من دراسة عبد القاهر ، وفي القسم الثاني ندرس نموذجاً قرآنيّاً ، معتمدين في ذلك ما قرأناه عند عبد القاهر .

ينظر عبد القاهر في قول ابن المعتزّ :

وإنِّي على إشفاق عيني من العدى لتجمح منِّي نظرةً ثمَّ أُطرِقُ

فيرى فيه أنّ حسنه إنَّما كان من لفظه ونظمه ، ويوضح ذلك بأنَّ القارئ قد يظنَّ أنَّ الحسن في استخدام الاستعارة (لتجمح منِّي نظرةٌ) ، مع أنّ وجه حسنه إنَّما كان من صحَّة استخدامه لمعاني النحو ، حيث جاء بـ (إنّ) حرف التوكيد في أوّل الكلام وهذا

الأمر ستتبع بالضَّرورة تأخير اللّام ، حتَّى تدخل في الخبر زيادةً في التوكيد ، وهذا الأمر يشترك معه تحديد النظر بقوله (نظرةً) ، ولم يقل (النظر) مثلاً ، إذ لو قال (النظر) لفهمنا أنَّه ينظر مليّاً ، أمّا التحديد بالتاء فيفيد أنها استراقٌ سريعٌ وينظر إلى العطف بـ (ثمَّ) فكأنّه يتراخى في اطراقه.ويضيف القاهر إلى الأدوات السّابقة لطيفةً يراها يراها في الاعتراض بقوله:(على إشفاق عيني من العدى) بين اسم (إنَّ) وخبرها (68) .

ما سبق يظهر أنَّ عبد القاهر ينظر إلى مكوِّنات الكلام نظرةً كليَّة ، تصبح فيها الأدوات فاعلةً باجتماعها ، لتكون مظهر إبداع الشاعر ، ولايصحُّ على – ما رأينا – إغفال واحدة منها ، لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى ضياع الدّلالة .

وإذا ما تركنا أمثلة عبد القاهر ، ونظرنا في قوله تعالى : (فأَلْقَى موسى عَصَاه)

(الشعراء : 45) ، نجد أنَّ الآية الكريمة جاء على النّسق المألوف في تركيب الجملة الفعليَّة، حيث جاء الفعل أوّلاً ، ويليه الفاعل ثمَّ المفعول به ، وقد يسأل القارئ نفسه عن سر مجيء الكلام على هذا الترتيب ، ويمكن من خلال الاستعانة بأسلوب عبد القاهر في النّظم أن نرى في تقديم الفاعل على المفعول اهتماماً بشأنه ، فهو أهمُّ من جهة أنّ المتلقّي ينتظر إجراء المعجزة على يده،بالعصا كانت أو بغيرها.ولو كان المفعول به هو المقدَّم لكان الاهتمام به ، من جهة أنّ المتلقّي يتشوَّق إلى معرفة المعجزة الصّادرة عن نبيّ الله (ع) ، ويرغب في معرفة الأداة المستخدمة في ذلك ، ولو قيل : (فعصاه ألقى موسى) بتقديم المفعول به على الفعل والفاعل لتغيَّرت الدّلالة ، إذ يكون المراد حصر المعجزة بالعصا دفعاً لتوهُّم من قد يتوهَّم أنَّها قد حدثت بغير العصا .

وقد تناول باحثون كثر نظرية النظم وثمّنوها وتكاد كلمتهم تجمع على عظمة الجهد الذي قدمه عبد القاهر في هذا المجال وفضله الكبير على الفكر اللغوي حتى العصر الحديث، ويؤكّد أكثرهم أنّه استطاع الإفادة مما قدّمه العلماء السابقون ، يقول د. محمد مندور : " ومن المؤكّد أنّ ما كتبه نحاة العرب منذ سيبويه شيءٌ يفوق الحصر ، وأنّ عبد القاهر أفاد مما كتبوه فائدة كبرى في دراسته التي انتهت به إلى وضع نظريته في المعاني الإضافية ، وصور الآراء النحوية للكلام ، أو بعبارة أخرى في النظم والخواص التركيبية للعبارة" [69] . وهذه حقيقة ، فقد استفاد من هذا التراث الكبير بآفاقه الواسعة حتى استطاع تكوين نظريته الفكرية اللغوية التي تقوم على النظر في السياق والتعاضد الدائم بينه وبين المعاني التي هي أساس الفكر وأصل الصياغة .

الهوامش

1- أنظر (الكتاب ، سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل . بيروت ، الطبعة الأولى ، 1411هـ/ 1991م ، 25/1)

2- المصدر السابق ، 169/3-170 .

3- المصدر السابق ، 102/2.

4- ينظر المصدر السابق ، 138/1 .

5- ينظر المصدر السابق ، 504/3 .

6- المقتضب ، المبرد ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب – بيروت ، 89/3 .

7- ينظر (الكامل ، المبرد ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعةالأولى،1406هـ/1986م، /83،376) .

8- ينظر المصدر السابق ، 371/1 .

9- ينظر المصدر السابق، 572/1 .

10- ينظر المصدر السابق ، 1032/2.

11- ينظر المصدر السابق ، 656/2،657 .

12- ينظر المصدر السابق ، 765/2 .

13- البلاغة ، المبرد، تحقيق د. رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية–القاهرة، الطبعة الثانية ، 1405هـ /1985م ، ص81 .

14- النعت في إعجاز القرآن، الرمّاني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله و د.محمد زغلول سلام ، دار المعارف–القاهرة، الطبعة الرابعة ، ص.76،95

15- ينظر المصدر السابق ، ص 76،95.

16- المصدر السابق ، ص .107

17- ينظر(البلاغة العربية . علم المعاني بين بلاغة القدماء وأسلوبية المحدثين، د. طالب الزوبعي ، منشورات جامعة قار يونس . بنغازي ، الطبعة الأولى،1997م ، ص.13

18- الخصائص، ابن جنّي ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر–بيروت، الطبعة الثانية، 215./1

19- ينظر المصدر السابق، 217/1.

20- المصدر السابق، 220/1.

21- ينظر المصدر السابق،224/1.

22- المصدر السابق، 237/1.

23- ينظر المصدر السابق، 264/1.

24- ينظر المصدر السابق، 1/ 293، 299.

25- المصدر السابق، 242./2

26- ينظر المصدر السابق 463/2، 464، 269/3.

27- ينظر المصدر السابق ، 3 / 332 .

28- الأدب الصغير ،ابن المقفع،دار صادر. بيروت، 1384هـ ، 1964م، ص.13

29- تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، تحقيق للسيد أحمد صقر ، إحياء الكتب العربية ، 1954م ، ص .

30- المصدر السابق، ص.16

31- بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص.27

32- ينظر المصدر السابق، ص .26

33- المصدر السابق، ص.29

34- ينظر (نظرية النظم وقيمتها في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر ، وليد محمد مراد ، دار الفكر – دمشق ، الطبعة الأولى ، 1403هـ/1983م، ص .59

35- بيان إعجاز القرآن، ص36

36- ينظر (قضايا الحداثة عند عبد القاهر ، د. محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، الطبعة الأولى، 1995م، ص34) .

37- الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية، د. عبد الرؤوف مخلوف، منشورات دار مكتبة الحياة–بيروت ، 1987م، ص184.

38- ينظر المرجع السابق ، ص189 .

39- المرجع السابق، ص.185

40- ينظر المرجع السابق ، حتى .188,187

41- ينظر (نظرية النظم وقيمتها العلمية، ص36) .

42- ينظر (بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار و أثره في الدراسة البلاغية ، د.عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي – مصر، ص 477، 487) .

43- المرجع السابق ، ص 480.

44- نظرية النظم وقيمتها العلمية ، ص.61

45- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح الشيخ محمد عبده و الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ، دار المعرفة – بيروت ، 1402هـ /1982م ، ص64 .

46- المصدر السابق ، ص65.

47- ينظر (مجلة الفكر العربي ، العدد 46 ، حزيران 1987م ، مقالة " عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم" د. عبد القادر حسين، ص 147) .

48- دلائل الإعجاز ، ص.38

49- المصدر السابق ، ص.40

50- المصدر السابق، ص41.

51- ينظر المصدر السابق ، ص.43

52- المصدر السابق ، ص.44

53- ينظر المصدر السابق، ص 44، .45

54- ينظر المصدر السابق، ص45.

55- المصدر السابق، ص .36

56- المصدر السابق ، ص.74

57- المصدر السابق ، ص .361

58- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، ص 44.

59- المرجع السابق ، ص44.

60- ينظر المصدر السابق ، ص 45.

61–اللّغة والتفسير والتَّواصل ، د.مصطفى ناصف ، سلسلة عالم المعرفة 193، كانون ثانٍ عام 1995 ، ص.114

62– ينظر المرجع السابق ، ص115 .

63–ينظر المصدر السابق ، ص116 .

64– ينظر المرجع السابق ، ص117 .

65–ينظر إشكاليّات القراءة وآليَّات التأويل ، د.نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الرابعة 1996 ص162 .

66– ينظر المرجع السابق ، ص164 .

67– ينظر المرجع السابق ، ص166 – 167 .

68– ينظر : دلائل الإعجاز ، ص77–78 .

69– الميزان الجديد ، د.محمد مندور ، القاهرة ، 1962م ، الطبعة الثانية ، ص147 .

المراجع:

.....

1- الأدب الصغير ، ابن المقفّع ، دار صادر – بيروت ، 1384هـ – 1964 م .

2- إشكاليّات القراءة وآليّات التأويل ، د.نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي – الدّار البيضاء ، الطبعة الرابعة 1996م .

3- الباقلاّني وكتابه في إعجاز القرآن دراسة تحليليّة نقديّة ، د. عبد الرؤوف مخلوف ، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت ، 1987م.

4- البلاغة ، المبرّد ، تحقيق د.رمضان عبد التوّاب ، مكتب الثقافة الدينيّة – القاهرة ، الطبعة الثانية 1405 هـ – 1985م .

5- البلاغة العربية – علم المعاني بين بلاغة القدماء وأسلوبيَّة المحدثين . د.طالب الزوبعي . منشورات جامعة قاريونس – بنغازي ، الطبعة الأولى 1997.

6- بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغيَّة ، د.عبد الفتَّاح لاشين ، دار الفكر العربي – مصر .

7- تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، تحقيق السيد أحمد صقر،إحياء الكتب العربيَّة ، 1954م.

8- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلامة ، دار المعارف – القاهرة ، الطبعة الثانية .

9- الخصائص ، ابن جني ، تحقيق محمد علي النَّجار ، دار الهدى للطباعة والنشر – بيروت ، الطبعة الثانية .

10- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تصحيح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ، دار المعرفة – بيروت ، 1402 هـ – 1982م.

11- قضايا الحداثة عند عبد القاهر ، د.محمد عبد المطلب ، الشركة المصريّة العالمية للنشر – لونجمان ، الطبعة الأولى 1995م .

12- الكامل ، المبرد ، تحقيق محمد أحمد الدّالي ، مؤسسة الرسالة – بيرون ، الطبعة الأولى 1406 هـ – 1986م.

13- الكتاب ، سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة الأولى 1411 هـ- 1991م .

14- اللّغة والتفسير والتواصل ، د.مصطفى ناصف ، سلسلة عالم المعرفة 193، كانون ثانٍ عام 1995م .

15- مجلة الفكر العربي ، العدد 46 ، حزيران 1987 م . مقالة (عبد القاهر الجرجاني ونظريّة النظم) د. عبد القادر حسين

16- المقتضب ، المبرّد ، تحقيق محمد عبد الخالق عضمية ، عالم الكتب – بيروت .

17- الميزان الجديد ، د.محمد مندور ، القاهرة 1962 .

18- نظرية النظم وقيمتها في الدراسات اللّغوية عند عبد القاهر ، وليد محمد مراد ، دار الفكر – دمشق ، الطبعة الأولى 1403 هـ -1983م .